"رحلة الحج الجوية من أمريكا إلى مكة المكرمة"

تأليف : عبدالغفور شيخ فضل إلهي

ترجمة : غالب أحمد المصري

الرياض : دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م

مراجعة : د. عبدالرحمن بن سعد العرابي

يجيء موضوع كتابنا في مادته الوصفية المبسطة؛ ليلقي الضوء على حقبة مهمة من تاريخ المملكة العربية السعودية ترجع إلى ما قبل ثمانية وأربعين عامًا خلت؛ لتصور لنا رحلة الحج في عام ١٩٥٢م ، وما كانت تجري عليه الحياة في مكة المكرمة والمدينة المنورة والمشاعر المقدسة ، وذلك بطريقة الوصف الحي لمشاهد حية عاشها المؤلف من خلال رحلته لتأدية فريضة الحج وتأملات واقعية ناضجة في سياق المكان - أي منذ أن وطأت أقدامه الديار المقدسة حتى مغادرته لها - وكذا الزمان أي وقت أداء فريضة الحج المقدسة حيث وصل إلى أم القرى في السادس من شهر ذي الحجة في عام ١٣٧٢هـ، زار خلالها مكة المكرمة والمدينة المنورة .

وهذا العمل ترجمة لمقال نشر باللغة الإنجليزية في المجلة الجغرافية الوطنية بواشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية في عدد يوليو ١٩٥٣م، نقلها إلى العربية الأستاذ غالب أحمد المصري، ونشرته دار الرفاعي للنشر ضمن سلسلتها القيمة في رحاب الحرمين ، وهو الكتاب الثالث المنشور مع السلسلة . وقد اعتمد المؤلف المنهج

اعتمد المؤلف المنهج الوصفي من خلال تأملات دقيقة ومعايشات حقيقية

الوصفي من خلال تأملات دقيقة ومعايشات حقيقية وواقعية ووصف حي في حقبة تاريخية لأرض الحرمين الشريفين والمشاعر المقدسة في عهد الملك عبدالعزيز، طيب الله ثراه ، وذلك بأسلوب أدبي شائق وسهل ممزوج ببراعة تعبيرية وصفية من خلال بعض القصص والروايات التي مرت بالكاتب ولقاءاته مع رفاقه ضمن وفود الحجيج من الجنسيات المختلفة ، بالإضافة إلى الكثير من الصور التي التقطها الحجيج من الجنسيات المختلفة ، والكثير من الصور التقطها بنفسه في ما يشبه المغامرة؛ نظرًا لخطر القيام بعملية التصوير واستخدام آلات التصوير في تلك الأماكن المقدسة؛ إذ كان يحمل تحت لباس الإحرام آلة تصوير بعد أن حصل على إذن باستخدامها من مسؤول رفيع المستوى في مكة المكرمة لم يذكر اسمه ، وفي هذا السياق يقول : "فقد وضعت نصب عيني مهمة قلّما سبقها مثيل في تاريخ الإسلام الطويل ، تلك المهمة هي التقاط سجل كامل من الصور الملونة لمشاعر الإسلام المقدسة " .

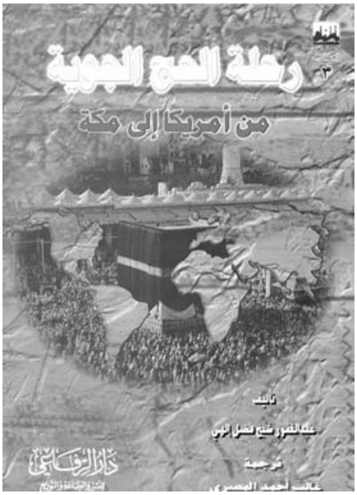

وكان هدفه من ذلك هو إثراء الغرب بمعرفة أكبر عن الإسلام وعن عيديه الروحانيين ، وما يتضمنان من معان ، وإيضاح المغزى الحي من الحج وأهميته لأكثر من ثلاثمئة وسبعينً مليون مسلم في ذلك الوقت ، ونقل هذه المعاني إلى العالم الخارجي بالكلمة والصورة؛ ليرى الآخرون الموكب العظيم لأبناء عقيدته؛ ليسهم بذلك في تحقيق المزيد من الفهم لواحدة من فرائض الإسلام .

كما اعتمد الكاتب في مقاله أيضًا أسلوب المشاهدة والمعايشة اللصيقة لكل من تعامل معهم ، سواءً من رفاق السفر ، أو أقرانه من الحجيج ، أو ممن تعامل معهم من مسؤولين وأبناء مكة المكرمة كما جاء على لسانه مثلاً في أسباب تحريم التقاط الصور في الأماكن المقدسة .

قام المؤلف بإعطاء صورة وصفية تاريخية لشعيرة الحج ، ولمعالم الأماكن والمشاعر المقدسة بالإضافة إلى معلومات قيمة وإن كانت مبسطة عن تاريخ المملكة في تلك الحقبة، والتطور الكبير الذي شهدته البلاد، والتحول الأمني الكبير الذي حققه الملك عبدالعزيز - طيب الله ثراه - عمومًا ولطرق الحجيج على وجه الخصوص ، وتحقيقه لجمع الشمل، وتوطين البدو، وإدخال الهاتف، والطيران، وغير ذلك من مظاهر المدنية الحديثة، وكل ذلك بأسلوب سهل ومبسط ولغة أدبية راقية .

وخلال سطور مقاله (الكتاب) عالج المؤلف بحيادية واضحة بعيدًا عن التحيز أو المبالغة ، واعتمد كثيرًا على السرد الوصفي ؛ إذ جاء متوافقًا مع الأحداث والأوضاع التي كانت سائدة حينئذ ، وتميزت أغلب معلوماته بدقتها ؛ إذ ساعده على ذلك أن والده التاجر الباكستاني المقيم في نيروبي بكينيا كان يحتفظ ببيت في مكة المكرمة، يأتي دائمًا مع أسرته للإقامة فيه، وخاصة في أوقات الحج ، فتعرّف على مكة وأوضاعها الاجتماعية ، وساعده ذلك أيضًا على معرفة تاريخ المنطقة وأدق تفاصيلها، واتصاله أيضًا ببعض المسؤولين، وارتباطه ببعض الأصدقاء فيها . ولم يكن سكان مكة المكرمة في ذلك الوقت يزيدون عن ١٥٠ ألف نسمة ، وفي موسم الحج يزداد عدد القاطنين فيها ؛ إذ يأتيها من الحجيج حوالي نصف مليون حاج تعج بهم الأرصفة والأفنية والمداخل والحدائق والمساجد ، محدثين إرباكًا كبيرًا خاصة فيما يتعلق بالسكن . ويورد المؤلف بعض القصص

الطريفة التي مرت بها عملية تحديث المملكة ، من ذلك وصول الهاتف؛ إذ جاء في ثنايا صفحة " ٤٥ " على لسانه نص حديث دار بينه وبين أحد المشايخ في خيمة والده بمنى؛ إذ يقول : "كان الحديث منصبًا على تأثير الغرب في الإسلام ... ولكن كان يشوب ذكر بعض الاختراعات المقلقة لهم شيئًا من الفكاهة والدعابة ، فقد ذكر أحد الشيوخ مثلاً كيف أدخل الملك عبدالعزيز الهاتف في المملكة العربية السعودية : " يجب أن تفهموا أيها المتنورون أن العلماء المحيطين بالملك متشددون في أساليبهم ، فهم عندما سمعوا أن بعض الكفار كانوا يقدمون للملك جهازًا أسود غريبًا يتكلم أيقنوا أنه من فعل الشيطان ، لذلك قام الملك بدعوة العلماء إلى قصره بالرياض ، وعندما تجمعوا قدم سماعة الهاتف إلى كبير العلماء، وطلب منه أن يضعها على أذنه، فأطاعه الشيخ، وهو يرتجف ، وفي غضون لحظة افترت شفتاه عن ابتسامة تنم عن الابتهاج فقد أتاه من الجهاز صوت يتلو السورة الأولى من القرآن الكريم : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فالتفت الملك - الذي وضع المتكلم في الطرف الآخر من الخط في مكة المكرمة إلى العلماء - وقال لهم: هل هذا صوت الشيطان" ؟!

وهذه القصة سواء حدثت أو لم تحدث إلا أنها توضح أن طريق التحديث الذي سلكه الملك المؤسس عبدالعزيز بن عبدالرحمن - رحمه الله - لم يكن سهلاً كما قد يتخيله البعض .

والكتاب " المقال " على الرغم من بساطته فهو عمل تاريخي أدبي يلقي الضوء على حقبة تاريخية مهمة في تاريخ المملكة ، ويصور لنا مشوار الحج في الأمس، وما كانت تجرى عليه الحياة في تلك الأيام .

كما يجسد هذا الكتاب في وصف دقيق المشاعر والأحاسيس والمعاني النبيلة والسامية التي تتجلى في موسم الحج ؛ إذ إنه المؤتمر

الجامع للمسلمين والمناسبة الفريدة التي تجسد وحدتهم وإخلاصهم العبودية لله وحده ، إلى جانب إعطاء القارئ صورة وصفية تاريخية لمعالم الأماكن والمشاعر المقدسة بأسلوب رفيع ومدعم بالصور النادرة المتعلقة بكثير من مظاهر الحياة في مكة والمدينة زادت من قيمة الكتاب التاريخية ، ولذا أوصي بقراءته سواء للعامة أو المتخصصين .